وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

البناء الأخلاقي للإنسان على ضوء هدايات القرآن

اسم الباحث/ـة

د/ الشيخ التجاني احمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن القيم تشكل المحرك الأساسي للإنسان والعامل الرئيسي في تحديد أهدافه وغاياته، والمحافظ على قوة سيره وانتظامه، والتاريخ البشري تاريخ قيم تزهر وتذبل، وحين تخور القيم تلتبس المسالك وتتيه القافلة، لذلك جاءت الديانات السماوية كلها والإسلام على رأسها لترفع راية القيم، ومن يستقصي ما تضمنه القرآن الكريم من آيات موجهة للأخلاق بنوعيها الشخصي والاجتماعي ومؤسسة لقواعدها وقوانينها، سيجد منظومة تربوية تضبط نشاط الإنسان وتحدّد أنماطه المعيارية وغاياته العلى، وتحقق مصلحته الفردية والجماعية.

فالقرآن الكريم يستهدف بناء الإنسان الصالح من خلال تنقية روحه من الشوائب وتطهيرها من الأدران، ويحدد للإنسان الغايات والأهداف على المستويين الكلي والجزئي، مع ارتباط ذلك بالرؤية العامة للإنسان وعلاقته بالكون، وطريق الوصول إلى ذلك هو العمل الصالح الدؤوب مع الوعي والشعور بالمسؤولية مع الالتزام الكامل بالنهج القرآني، فهنا شروط لبناء الإنسان الكامل تتمثل بالتحلي بالأخلاق الحميدة، حيث ورد في كثير من الآيات والسور، وصف المتصفين بها بالمؤمنين المتقين المفلحين الفائزين بالجنة ورضا الله تعالى، والتخلي عن الصفات الذميمة حيث ذكرت الآيات أنها من عمل الكفار والمشركين والشياطين، وحذرت من خطورتها على الفرد والمجتمع دنيا وأخرى.

ومن هنا نعلم عمق الهدي القرآني، وقدرته المطلقة على بناء شخصية متوازنة سوية، وتحرير الإنسان من عقلية الجاهلية، وتنقيته من تشوهاته الخُلُقية، حتى يعود إلى فطرته الأولى، وهو ما نحتاجه لإنتاج الحلول الآنية والمستقبلية.

وقد جاء هذا البحث لبسط الحديث عن مفهوم البناء الأخلاقي للإنسان ومرتكزاته ومميزاته وخصائصه ومقوماته ومسالكه وأدواته، وسيكون ذلك وفق **المباحث الآتية**.

المبحث الأول: البناء الأخلاقي للإنسان: المفهوم والمرتكزات

المطلب الأول: مفهوم البناء الأخلاقي

المطلب الثاني: مرتكزات البناء الأخلاقي

المبحث الثاني: تغيير شخصية الإنسان ودور المؤثرات المتعددة من خلال الهدي القرآني

المطلب الأول: أوجه الاختلالات الأخلاقية

المطلب الثاني: أسباب الاختلالات الأخلاقية

المبحث الثالث: النظام المنشود للبناء الأخلاقي للإنسان على ضوء هدايات القرآن

المطلب الأول: مسالك البناء الأخلاقي

المطلب الثاني: أدوات البناء الأخلاقي.

خاتمة.

المبحث الأول: البناء الأخلاقي للإنسان، المفهوم والمرتكزات

البناء الأخلاقي للإنسان له مفهومه في المنهج القرآني؛ وذلك في إطار تصوره لماهية وهدف ومرتكزات هذا البناء، وهذا ما سيجليه هذا المبحث من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: مفهوم البناء الأخلاقي

ما نقصده بالبناء الأخلاقي هو ما به يكون الإنسان مستقيما، أي يكون عمله في الحياة قويماً سديداً، والأخلاق بهذا المعنى هي المنظومة التربوية الإيمانية التي تضبط نشاط الإنسان، وتحدّد أنماطه المعيارية وغاياته العلى، ومما يدل على ذلك ورودها في القرآن الكريم بمعنى السجايا المدركة بالبصيرة، قال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]' والخَلَاقُ ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقِه قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وفلان خليق بكذاً: أي كأنه مخلوق فيه ذلك، كقولك مجبول على كذا، أو مدعو إليه من جهة الخَلْقِ."[١]

وعرف العلماء الأخلاق بتعريفات كثيرة لكن أغلبها تتفق في كونها؛ عبارة عن مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني؛ ومن أهم تلك التعريفات ما ذكره ابن مسكويه بأنها: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية ولا روية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء

---

[١] المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، الراغب، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ، ٢٩٧/١.

يعجبه وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً [١].

وعرفها الشيخ الطاهر بن عاشور بقوله: "خُلُقٌ بِضَمَّتَيْنِ، فهو السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر وقد فسر بالقوى النفسية، وهو تفسير قاصر فيشمل طبائع الخير وطبائع الشر، ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه فيقال: خُلُقٌ حَسَنٌ، وَيُقَالُ فِي ضِدِّهِ: سُوءُ خُلُقٍ، أَو خُلُقٌ ذَمِيمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ الْقَلَم: ٤. وَفِي الْحَدِيثِ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن.... وَالْخُلُقُ فِي اصْطِلَاحِ الحكماء: مَلَكَةٌ (أي كيفية راسخة في النفس أي متمكنة من الفكر) تصدر بها عن النفس أفعال صاحبها بدون تأمل"[٢]. وقال أيضاً: تزكية النفس الإنسانية وارتياض العقل على إدراك الفضائل وتمييزها على الرذائل الملتبسة بها"[٣].

فالأخلاق إذن هي: "منظومة القيم والتوجيهات الإسلامية التي تصلح شأن الجماعة المسلمة، وتنظم سلوك الفرد المسلم تجاه ذاته والآخرين، بقصد تحقيق السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة"[٤].

---

[١] تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، تحقيق: ابن الخطيب، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، ص ٤١

[٢] التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، ٩/١٧١-١٧٢.

[٣] أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لابن عاشور، محمد الطاهر، دار السلام مصر، ط٢، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص١١٦.

[٤] الأصل الأخلاقي للتربية الإسلامية وانعكاساته التربوية: دراسة تأصيلية، لعدنان مصطفى خطاطبة، مجلة العلوم التربوية، العدد الثالث، شوال ١٤٣٦هـ، ص ٣٩٥.

والأصل في الخُلق أن يكون اختيارياً يكسب بالتخليق والجهد والمثابرة على التزام جانب التسامي، ولذلك يمدح به الإنسان أو يذم ويثاب عليه أو يعاقب[1].

والبناء الأخلاقي للإنسان يستهدف بناء روحه بناء محكما متكاملا، وهو مرادف للتزكية العلمية للنفس؛ أي بناء النفس بالتدريج حتى ينضج الإنسان ويستوي على سوقه. ويكتمل تشييد بناء شخصيته.

ومعنى هذا أن الغوص في تعليم العلم والثقافة الإسلامية لا يأتي أكله ولا تجنى ثمراته، دون أن تسبقه وتعقبه وتصاحبه تربية إيمانية منبثقة من فقه القلوب، فالعلم دون تربية الإيمان المبنية على فقه القلوب قد يساعد على نوع من يقظة العقل ووعيه ونشاطه، ولكنه سيبقى إعرابية فكرية لن تخدع علام الغيوب.

المطلب الثاني: مرتكزات البناء الأخلاقي:

أما مرتكز البناء الأخلاقي للإنسان فيتأسس على المنهاج القرآني في السلوك، ويستوحي مادته منه، فمصدر نظام الحياة في الإسلام يتمثل بالوحي الإلهي أصالة وابتداء، والأخلاق الإسلامية مصدرها الرئيسي هو الوحي متمثلا بالقرآن الكريم والسنة النبوية، ومعنى ذلك أن منشأ الأخلاق ومنبعها الذي تؤخذ وتستمد منه هو القرآن والسنة، فما قرره القرآن وما بينته السنة النبوية من أخلاق جملة أو تفصيلا، فإنها تعد أخلاقا إسلامية، وتحسب على الإسلام وتضاف إليه.

يشرح الشيباني جوانب هذه المعرفة الأخلاقية التي ينشئها مصدر الوحي ويتضمنها ويغطي مساحتها بشكل عام وذلك بما "تحتويه من مبادئ وقواعد

---

[1] انظر المنهاج القرآني في التشريع، لفتح الله سعيد، عبد الستار، رسالة دكتوراه قدمت في جامعة الأزهر كلية أصول الدين تخصص التفسير والحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٤٠٧.

ومثل وقيم خلقية وأهم مصادر الإلزام الخلقي والضمير أو الوازع الخلقي، وأهم مصادر التحسين والتقبيح اللذين يتضمن أحدهما حكمنا الخلقي على فعل من الأفعال الإنسانية وخير المصادر التي نستمد منها مقاييسنا الخلقية ونبني عليها أحكامنا الخلقية"[١].

والمطلوب عملياً منا إذا كنا نريد أن نعمل على بناء منظومة الأخلاق الإسلامية "أن نستقصي ما تضمنه القرآن الكريم من آيات موجهة للأخلاق بنوعيها الشخصي والاجتماعي ومؤسسة لقواعدها وقوانينها، ونعزز ذلك بتتبع أحاديث الرسول صلى الله عيه وسلم وتوجيهات صحابته والعلماء والصالحين، وإننا لواثقون أن الباحث المسلم سيجد في مصادر الشريعة الإسلامية، وعلى الأخص الكتاب والسنة ما يكفيه لبناء نظرية أخلاقية شاملة كاملة تحقق مصلحة الفرد والمجتمع"[٢].

فقد جاء في القرآن الكريم الدعوة إلى أصول الأخلاق والإلزام بها، والتحذير من مخالفتها، وترتيب الثواب على فعلها، والعقاب على تركها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل: ٩٠، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ المائدة: ١.

وأثنى الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم في قرآنه المبين ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤، والإسلام يخضع جميع الأعمال وما يصدر من أحوال للقيم الأخلاقية؛ يظهر ذلك جليا في الكثير من الآيات القرآنية التي تدل على أهمية الأخلاق من خلال الأمر بالتحلي بأحسن الأخلاق وأقومها من جهة، والنهي عن سيئدها ورذيلها من جهة أخرى، بالإضافة إلى بيان جزاء الفريقين، فكما

---

[١] فلسفة التربية الإسلامية، الشيباني عمر التومي، الدار العربية للكتاب، ص ٢٥١.
[٢] نفسه، ص ٢٥٦.

قال ابن حزم إن "مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق لذة العاقل بتمييزه ولذة العامل بعلمه ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله باجتهاده"[١]، والإسلام يهدف إلى بناء النفس المؤمنة الخالية من الأمراض الأخلاقية ليصبح المسلم قويا بأخلاقه يحافظ على مجتمعه[٢].

[١] الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ١٣.

[٢] معالم أصو التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه، للأنصاري عبد الرحمن محمد، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٧هـ، ١٤١٨هـ، ص: ٤٨٤.

المبحث الثاني: تغيير شخصية الإنسان ودور المؤثرات المتعددة من خلال الهدي القرآني.

لقد ساهم الدين الإسلامي مساهمة كبيرة في تشكيل وصياغة شخصية الإنسان المسلم، وذلك لما جاء به من قيم سامية ومسلكيات ومعالجات يقاس عليها في بناء شخصية الإنسان المثال، لكن كان للأفكار والمعتقدات والقناعات والعادات والأعراف، والتطورات الاجتماعية، أثر بالغ في ترسيخ هذه القيم والمسلكيات أو تشويهها أو تمويهها، وقد شهد الإنسان المسلم تحولاً كبيرا على هذا المستوى، عاصفاً وصاعقاً أحياناً، كاد هرم الأخلاق والمسلك القيمي القرآني ينقلب، مع العلم بأنه لا يمكن الزعم بأن وضع الإنسان المسلم الديني والخلقي كان في يوم ما على حال من الكمال، يتطابق بها المثل والمثال، وإنما شهد الإنسان المسلم اختلالات على مستوى المسلكيات والأخلاق، أعطت معنى لكدح الإنسان في سبيل تغليب جانبه الملكي –الروحاني على جانبه البهيمي– المادي، أو إحداث قدر من التوازن بينهما، لا في حقل العبادات فحسب، وإنما في حقل العادات والمعاملات أيضا، وهو مربط الفرس في البناء المنشودة لصلاح الإنسان وفلاحه،

بيد أن هناك تحولات عاصفة تجعل المتأمل اليوم في حال الإنسان المسلم يدرك أن بوصلته معطلة مشوهة،

وأن "الغثائية" بدأت تظهر في الإنسان المسلم، ولا سبيل للنهوض بالإنسان المسلم من كبوته إلا بنقده وكشف أمراضه، وتطبيق العلاج، فلا مفر لنا من التدقيق لمعرفة أوجه التحولات القيمية التي تعصف بالإنسان المسلم، لكي نغير وضعه ونصلح كيانه.

وهنا سنقف على أوجه وأسباب التحولات القيمية في حياة الإنسان المسلم، وذلك من خلال تشخيصنا لها في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: أوجه التحولات القيمية:

لقد كان نصيب المسلم اليوم من الغثائية نصيباً كبيراً، الأمر الذي أحدث خللاً عظيما في قانون الأخلاق، وجعل المجتمع ينوء بسلبيات جسيمة فاقت كل تقدير، وهذه السلبيات تتمثل في الظواهر الحقيقية الآتية:

على مستوى الإيمان: معلوم أن الإنسان أي إنسان يولد على الفطرة التي تدل على الأرضية النفسية للكائن البشري. هذه الفطرة، هذه الأنا الباطنية والطبيعة الأولية القبلية الكامنة في أعماق كل واحد منا، هي موطن الإيمان والثقة بالله، هذه الفطرة التي تجعل قلب الإنسان نقيا متقبلا لعبادة الله، تكون شخصيته سوية، لكن إذا ما شوهها المحيط العائلي والبيئة الثقافية فستصبح شخصية دنيئة، وهذه المشوهات ذكرها الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة". ثم يقول: "اقرؤوا: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾. زاد البخاري: (فأبواه يُهَوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه. تُنْتَجُ البهيمة بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاءَ؟!) [1].

إذن يولد المولود على الفطرة، أي على الاستعداد لتلقي الإيمان والاستقامة عليه. لكن هناك عوامل تجعل فطرته مقطوعة ومجدوعة ومبتورة، وهي ترجع إلى البيئة الاجتماعية الحاضنة تمجسه أو تنصره إن كانت بيئة لذلك أو تحفظه مسلما إن كانت بيئة خير وإسلام، ثم يأتي بعد ذلك عامل المدرسة التي إما مدرسة علم وإيمان، وإما مدرسة منحرفة تغتال بأساتذتها أجيال المسلمين وتجتال فطرتهم. وهنا نلاحظ أن أغلب المدارس اليوم تخرج لنا أجيالاً من الطلبة

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، الحديث رقم: ١٣٥٨. ومسلم في صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، الحديث: ٢٦٥٨.

اكتسبوا "مَنَعَة" ضد الإيمان بما أودعتهم المناهج الفلسفية التي تعرضوا "لإشعاعها" المميت وعدوانها من الشك والتشكيك ومركزية الإنسان في الوجود وعقيدة أن الله -تعالى الله- فكرة تتطور مع العصور، وأن الإنسان خلق فكرة الله -جل الله- لا العكس[١].

وأيضاً الإعلام الذي أصبح يغرس هو الآخر ألغاما في أرض الفطرة، بما يبثه من برامج هادمة للأخلاق والتدين، يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم الآية ٢٩). الدعوة واضحة هنا إلى الاستقامة الطوعية الخلقية والروحية. لكن التأثيرات الأسرية والاجتماعية والثقافية قد تجتهد في الانحراف بالفطرة السوية، ومن ثم يصبح دور التربية تقويم الاعوجاج الذي أنتجه المحيط الاجتماعي[٢].

على مستوى المعتقدات: انتشر الإيمان بالإيديلوجية الذي لا يترك مجالا للإيمان بالله ورسوله. تلك الإديولوجية تصنع الوعي الطبقي المتميز، وهنالك أيضا الدعوات الأخرى من قومية وعلمانية، من إباحية وإلحادية، من تنصيرية وانتهازية[٣].

في مجال العادات فقد سيطرت جملة من الآليات منها: إحلال روح السوق، ومركزية السوق، وسيطرة السوق، وإشهار السوق، والفن الإعلاني الإعلامي، واللون، والمرأة الدمية المعبودة المكدودة العارضة، يربط الإشهار مفاتن جسدها بالمزايا المزعومة للبضاعة.

---

[١] انظر المدخل إلى القيم الإسلامية، لجابر قميحة، دار الكتب الإسلامية، بيروت، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١٣٠.

[٢] انظر منهج القرآن في عرض الأخلاق الأسرية، لعلي عبد الله سعيد الشهري، رسالة الماجستير، في جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ ص٣٦٩.

[٣] انظر المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

على مستوى الأفكار: هناك الأفكار التي تغذي المسلكيات الخاطئة كانتشار الجريمة والولع بالتمول السريع، وسيادة أنماط من التزلف الهابط، وتبذير وتبديد المال، والاستهانة بالناس، والكذب، والسرقة والميوعة والانحلال، والتمرد على القيم، والكبر والاستعلاء، وتشبه الرجال بالنساء والعكس، وضمور النوازع الأخلاقية، وراء هذا كله "ثقافة" و"فلسفة" تمارس غسيل القيم السالبة لتحولها في أذهان الناس إلى قيم موجبة جاذبة، مما جعل أبناء الأسر المسلمة يعيش في تيه ضارب على غير هدى من الله، متفلت من عقل الدين والتقاليد والقيم، والأدهى والأمر في هذا الواقع ليس الظواهر المعيشية، وإنما في الموقف الذهني الذي يرفد تلك الظواهر ويمدها، مترجما عن انقلاب في المعايير التي يحكم بها على الأعمال[1].

المطلب الثاني: أسباب التحولات القيمية في حياة الإنسان المسلم:

ويمكن إرجاع جوهر التحولات القيمية لجملة من الاختلالات سادت في المجتمعات المسلمة، وكان تأثيره على الفرد بالغا وصاعقا، ويمكن إيجازها في الآتي:

أ.**سيادة الفقر** فبالفقر يستسيغ الإنسان ما لا يستسيغ الإنسان السوي في حال اليسر، أحرى إذا كان هذا الإنسان ما زال صبيا، فهنا يعتبر الفقر خطرا يهدد إعادة تشكل شخصيته، والمحافظة على فطرته، فالبؤس الاقتصادي والاجتماعي يولد الانحطاط الخلقي والضلال الروحي. لن تجدي إذن محاولة إحلال سلطان الفطرة مجددا وتربية الطفل على الاستقامة الروحية والخلقية ما لم تجتث الجذور المادية للداء. فإعادة التأهيل الخلقي لا بد أن يواكبها انكباب على الحياة اليومية للطفولة.

---

[1] انظر نحو برنامج وطني للقيم، خليل النحوي، ورقة مقدمة لندوة بناء الإنسان الموريتاني في القرن الواحد والعشرين، المنعقدة بانواكشوط ٢-٣ اغشت ٢٠١٥م، ص ٦.

ب. **انتشار الجهل** بمستويين: أحدهما العوز المعرفي الناتج عن حرمان فئات من الأطفال من التعليم، فشوارعنا آهلة يوما بعد يوم بشباب عاطل، يعاشر ويلوث طفولة لفظها نظام تعليمي عاجز سقيم في ديارنا. والثاني: العوز الأخلاقي الناتج عن ضحالة التربية/التزكية حتى عند أولئك الذين تلقوا قسطا من التعليم النظامي أو غير النظامي أو هما معا، فكثير من مؤسسات التعليم في العالم الإسلامي عتيقة كانت أم حديثة، تعلم لكنها لا تزكي، تلقن لكنها لا تربي؛ تقدم معارف باهتة لم يزنها ألق قيم ولا مهارات، وقليلا ما تجدي المعارف إذا انقطع الحبل السري بينها وبين الإيمان والإحسان.

ت. **فساد المحيط الاجتماعي**: بما ساد فيه من الظلم المجتمعي، ولكن يظهر بشكل أكثر استفزازا اليوم، ظواهر من الغبن الاجتماعي المجسد في الاستعلاء والاستكبار من فئات بعض المجتمعات على بعض. مما جعل الفردية والأنانية سائدة، وحرمنا من التعاون والتعاضد الذي كان سائدا في مجتمعانا الإسلامية أفرادا وجماعات، وانزوت علاقات التراحم بين المستضعفين نتيجة لبؤسهم.

ث. **تغير أنماط العيش**، وأنظمة الحياة، وأوضاع المجتمعات، وما صاحب ذلك التغير بشتى أبعاده، من تبدل في الرافعات الاجتماعية (العلم والخلق قديماً، المال حديثاً) ومن اقتضاء حثيث لقيم قديمة جديدة، كأخذ أسباب القوة، هذه القيم لم يتأهل المسلمون، لا تربوياً ولا ثقافياً ولا سياسياً لاعتناقها. فمن الأسباب التي جعلتنا لقمة سائغة للشركات العالمية، وموضوعا لقانون السوق والغاب، ومتخلفين في عالم المستضعفين.

السبب المشار إليه جملة في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ

إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦١)[١].

ج. **تضاؤل دور البيت في التربية** نتيجة لبعض العوامل السابقة، ولعوامل انشغال الأبوين وأميتهما أو أحدهما أحياناً.

ح. **سوء أداء المدرسة**، وفشلها بالجملة في الجمع بين إكساب المعارف وغرس القيم، فالدرس الديني في المدرسة هو إما درس وعظي تلقيني ضئيل الجدوى، لا يتجاوز المطلوب منه حفظ نصوص والإجابة على أسئلة في الاختبارات أو الكف عن الضوضاء داخل قاعة الدرس مثلاً،

وإما درس مضاد للتربية الإيمانية يمرر برفق من خلال نصوص وممارسات حاملة لدروس خفية أو جلية، هادمة للقيم، وعادة ما يعتبر التلميذ العلم عبئا يجتهد في حمله لكي يتخلص منه في أقرب فرصة، ويستمرئ الارتكاس في طور آخر من أطوار الأمية والتقاعد المعرفي المبكر.

خ. انهيار حواجز الجغرافيا وتحول العالم إلى شاشة صغيرة في الغرفة أو الحقيبة أو الجيب، شاشة تلفزة أو جوال أو حاسوب، أو لوح رقمي مفتوح على كل ما يرمي به سيل الثورة الرقمية من غث وسمين، ناقل لأغرب القيم وأبشعها وأشدها فتكا بضمير الإنسان ونوازعه العلوية،

وذلك في غياب نظام أسري تربوي وتوعوي ناجح، يزود أبناء الأسرة عامة، والأطفال منهم خاصة، بسواتر قيمية ذهنية تريهم السيئ سيئاً على الأقل إن هي لم تعصمهم من مفارقته[٢]

---

[١] انظر الحفظ التربوي للقرآن، اللاحم خالد بن عبد الكريم ص ١٤.

[٢] انظر نحو برنامج وطني للقيم، للخليل النحوي، ص ٨.

المبحث الثالث: النظام المنشود للبناء الأخلاقي للإنسان على ضوء هدايات القرآن.

تتحدد معالم النظام المنشود لبناء الإنسان الصالح في الهدي القرآني من خلال معرفة خصوصية أمتنا الإسلامية؛ لأن انتماءنا للعالم البشري لا يكفي في تحديد هويتنا، إنه انتماء يرتب علينا مسؤوليات تجاه بقية بني آدم، لكنه لا يكفي لتحديد هويتنا واستخلاص الصورة الأخلاقية التي نكون بها ملمحاً مميزاً من ملامح الجمال والإبداع في لوحة الوجود الإنساني العريض؛ ولأن كان بحثنا عن هويتنا الضائعة مفارقة عجيبة، لكنها مدعاة لتفعيل دورنا الإنساني بل الكوني، أي أنه سيضاعف من مسئولياتنا ليس تجاه أنفسنا،

وإنما أيضا تجاه الإنسان حيثما كان، وتجاه الكون المسخر بعوالمه الحية والجامدة، المتحركة والساكنة، مسؤولية نتأهل بها لحمل عبء الاستخلاف الإلهي، فعندما تتغير نظرتنا إلى أنفسنا وإلى العالم، فنكتشف أن معنا رِسالة إلى الإنسان أُنْسيناها، وعجزنا عن حملها، وارتبكنا حتى في فهمها لتنوير أنفسنا. عندئذ ينتظر منا الإنسان كلمة الدلالة على الله، نبلغه رسالة الله ليسْمُوَ عن مستنقع الأخلاَق الرديّة، وبؤرة الشقاء الكفري، ومصير النار.

على هدى من تشخيص الحالة القيمية للإنسان، تتحدد القيم الإسلامية الصامدة التي تحتاج رغم صمودها إلى حراسة وحسن استثمار، والقيم المهزوزة التي تتطلب تنشيطا وتفعيلا وتثبيتا، والقيم الغائبة أو الغائمة التي تتطلب استدعاء وغراسة.

كما أن بالإمكان تصنيف هذه القيم أيا كان مستوى حضورها إلى شقين: قيم مجتمعية تتأسس على التقاليد الحميدة، نحتاجها داخل البيت، وفي تعاملاتنا مع الناس في الشارع أو المدرسة أو المسجد، وقيم مهنية نحتاجها لتأطير عمل الناس في مجال معين.

ولأن كون التربية الأخلاقية في نفسها مضمار فسيح وطويل ينضي فيه الإنسان

جياد حياته ما عاش، فيكون من الضروري في أي خطة تربوية لإصلاح الإنسان، أن ترتب الأولويات وتتخير قيماً محورية ناظمة، إذا نحن أحكمنا غراستها وحراستها كانت فلكا تسبح فيه بقية القيم، لا تند عنه،

لنفترض مثلاً أن تكون الحرية والمساواة قيمتين ناظمتين في أي مجتمع يهدد نسيجه التمييز والاستكبار، فلا شك أن الحرية هنا أفضل، لأنها صيانة لكرامة الإنسان، والمساواة في ذلك تعانق الحرية وتنصهر معها،

وهناك قيم محورية نحتاجها في تعاملنا مع أفراد المجتمع منها الأمانة واحترام الوقت؛ الأمانة حيث ما اعتبرت مغنماً، وحيثما ساد الغلول والمطل، والاحترام حيثما ما اعتاد الصغار صلب الوقت على نصب الإخلاف والكسل وعدم احترام الغير، وفي أي بيت ستكون النظافة أيضاً قيمة محورية يحترم بها الصغير والكبير كيانه ومكانه وجيرانه، وتلك أمثلة لا غير لما يمكن أن يكون أركاناً في بناء منظومة قيمية أساسها الإيمان والوعي بالمسؤوليات الأسرية والاجتماعية وحب المجتمع والوطن والأمة.

وبالجملة فإن الهدي القرآني في بناء البناء الأخلاقي للإنسان وإعادة تأهيله يشكل نظاماً تربوياً فريداً، يعوَّل فيه على التربية الإيمانية الإحسانية أساساً، ويجعل من الجهات المعنية بالإصلاح والتغيير غرضا وأداة، غرضاً؛ لأنها الأحوج إلى الإصلاح لخطورة فسادها على المجتمع، وأداة؛ لأنها الأقدر على الإصلاح، وهذا ما سنبينه في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: مسالك البناء الخلقي للإنسان:

يعد القرآن المنطلق الأساس للبناء الأخلاقي للإنسان، فهو يستهدف بناء الإنسان الصالح من خلال تنقية روحه من الشوائب وتطهيرها من الأدران، ويحدد للإنسان الغايات والأهداف على المستويين الكلي والجزئي، مع ارتباط ذلك بالرؤية العامة إلى الحياة والكون، فالله سبحانه وتعالى هو المثل الأعلى

للإنسان الصالح قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الانشقاق: ٦، فهذه الآية خاطبت الإنسان الصالح بأن مثله الأعلى هو الله وأن طريق الوصول إليه هو العمل الصالح الدؤوب مع وعي وشعور بالمسؤولية وعبر المنهج الذي يرسمه المثل الأعلى ذاته أو تقتضيه طبيعة هذا المثل الأعلى، وهنا يقدم القرآن الكريم شروطاً لتبني الإنسان الكامل، وتتمثل هذه الشروط بالتحلي بالأخلاق الحميدة، حيث ورد في كثير من الآيات والسور، وصف المتصفين بها بالمؤمنين المتقين المفلحين الفائزين بالجنة ورضا الله تعالى، والتخلي عن الصفات الذميمة حيث ذكرت الآيات أنها من عمل الكفار والمشركين والشياطين، وحذرت من خطورتها على الفرد والمجتمع دنيا وأخرى.

لقد ربط القرآن الكريم بين الأخلاق والعقيدة، فقد جاء التوجيه الأخلاقي مقرونا بالأمر بالعقيدة في كثير من المواقع،

كما دأب على التذكير بها والإعلام أن الترابط قائم بينها لحد الانصهار، وأن صحة الاعتقاد مرهون بصحة جزيئاته على نحو ما أمر به الشارع، وأن مخالفتها مخالفة لذلك الاعتقاد، ومناف لصحته أو كماله، فيكون صاحبه ناقص الإيمان.

ومن الأخلاق الحميدة التي يحتاجها الإنسان على مستواه الشخصي وواجب عليه التحلي بها لكي تستقيم حياته وينجح في تحمل أعبائها حلوها ومرها، خلق الصبر، يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) فهنا يرشد القرآن الإنسان إلى عدم اليأس من روح الله إذا عراه ما يغمه، وعدم تعظيمه المصائب،

فإن مع العسر يسراً، فالعسر متبوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك: إن للصائم فرحة، إن للصائم فرحة أي فرحة عند الإفطار وفرحة عند

لقاء الرب[١].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ٢٠٠.

يقول ابن عاشور: فأمرهم بالصبر الذي هو جماع الفضائل وخصال الكمال، ثم بالمصابرة وهي الصبر في وجه الصابر، وهذا أشد الصبر ثباتا في النفس وأقربه إلى التزلزل، ذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة قرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه،

ثم إن هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يمل قرنه فإنه لا يجتني من صبره شيئاً؛لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبرا[٢].

فكما حث القرآن على الصبر حذر من ضده وهو العجلة والخفة وغير ذلك، يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ الروم:٦٠. حيث حثت الآية على الصبر والبعد عن ضده وهو الخفة والقلق، فالاستخفاف الذي هو الجزع وظهور آثار الغضب مثلاً لا يحمل المؤمن على ترك الصبر[٣]،

وقد نهي الرسول عن أن يستخفه الذين لا يوقنون نهي عن الخفة التي من شأنها أن تحدث للعاقل إذا رأى عناد من هو يرشده إلى الصلاح، وذلك مما يستفز غضب الحليم، فالاستخفاف هنا هو أن يؤثروا في نفسه ضد الصبر، ويأتي قوله تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) في سورة الزخرف ٥٤[٤].

---

[١] تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ٣٢١/٥.

[٢] التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٢٠٨/٤.

[٣] تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ٢١١/٤.

[٤] التحرير والتنوير، مرجع سابق، ١٣٥/٢١.

كما قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك: خلق زيد من الكرم، جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له ولذلك قيل: إنه على القلب ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد[1].

على المستوى المجتمعي يحث القرآن الكريم على إصلاح العلاقات الاجتماعية وتقويتها، وذلك من خلال حب الخير للآخرين والتعاون بين الناس وإشاعة العفو والصفح عند الإساءة، وتعزيز سلوك البذل والعطاء؛ قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)،

ففي هذه الآية خلاصة كاملة للتصور الإسلامي الصحيح ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل الذي لا يستقيم بدونها، حيث جمع بين أصول الاعتقاد وتكاليف النفس والمال وجعلها كلاً لا يتجزأ ووضع لذلك عنواناً واحداً هو البر الذي يعد اسماً جامعاً لكل الطاعات، وأعمال الخير المقربة إلى الله الموجبة للثواب، والمؤدية إلى الجنة[2].

قال القرطبي: قال علماؤنا: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر، والحشر،

---

[1] تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ٤/٥١.

[2] انظر لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت (١/١٤٣).

والميزان، والصراط، والحوض، والشفاعة، والجنة، والنار، والملائكة، والكتب المنزلة، وأنها حق من عند الله، والنبيين، وإنفاق المال فيما يعن من الواجب والمندوب، وإيصال القرابة وترك قطعهم، وتفقد اليتيم وعدم إهماله، والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل- قيل المنقطع به، وقيل: الضيف- والسؤال وفك الرقاب. والمحافظة على الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر في الشدائد[1].

ربط هذه التوجيهات الأخلاقية بالإيمان يشعر بعلو شأنها، ويدعونا إلى أن نوليها من الرعاية والاهتمام ما تستحقه، وأن نقرن ذلك بالعمل الجاد الخالص لوجهه تعالى، خاصة إذا علمنا فوائد هذه التوجيهات على الفرد والمجتمع.

وقد ورد الاقتران لهذه القيم بالإيمان في آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (البقرة:٨٢)، ففي الآية اقتران للتوجيهات الأخلاقية الأسرية بالالتزام بتقوى الله وعبادته وحده لا شريك له، وإن ورودها على هذا الحال وبصورة متعددة لأمر يدعو إلى الوقوف والتأمل في هذا التوجيه الرباني الحكيم، فهو عندما يوجه الأنظار إلى أحكام الأسرة وتشريعاتها فهو يوجهها إلى رباط اجتماعي محسوس يدركه الناس، وهو رباط (القرابة والرحم)، فكل المجتمعات البشرية تتألف من البيوت (العائلات)، فصلاحها صلاحها، (ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة)؛ وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما في الفطرة بين الوالدين والأولاد، ثم

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م. (٢٤١/٢).

بين سائر الأقربين، فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله، فأي خير يرجى منه للبعداء والأبعدين؟

ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءا من بنية أمة؛ لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس، فأي لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءا منهم يسره ما يسرهم ويؤلمه ما يؤلمهم، ويرى منفعتهم عين منفعته ومضرتهم عين مضرته، وهو ما يجب على كل شخص لأمته؟.

وللعناية الصادقة التي بذلها الوالدان في تربية أبنائهم، والقيام بشئونهم أيام كانوا ضعفاء عاجزين جاهلين، أوجب سبحانه وتعالى الإحسان عليهم، والإحسان نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية، وقد ثنى بالإحسان بمن دونهم في النسب، فقال: (وذي القربى)، لأن الإحسان هو الذي يقوي غرائز الفطرة، ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين حتى تبلغ البيوت في وحدة المصلحة درجة الكمال[1].

وللقرابة حقان: حق الصلة، وحق المواساة. وقد جمعهما جنس الحق في قوله تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٦).

وقد بينت أدلة شرعية حقوق ذي القربى ومراتبها: من واجبة مثل بعض النفقة على بعض القرابة مبينة شروطها عند الفقهاء، ومن غير واجبة مثل الإحسان.

ثم ذكر القرآن الكريم في الآيتين حقوق أهل الحاجة من سائر الناس ففي الآية

---

[1] تفسير المنار، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م (٣٠٤/١). والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لمحمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، – ١٤٢٢ هـ. (٤٤٨/٣).

الأولى قال: (واليتامى والمساكين)، وفي الثانية قال:(والمسكين وابن السبيل)، واليتيم هو: من مات أبوه وهو صغير، وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين، ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة، فعلم أنها مقصودة لذاتها.

والسر في ذلك هو كون اليتيم لا يجد في الغالب من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه، والعناية بأموره الدينية والدنيوية،

فإن الأم إن وجدت تكون في الأغلب عاجزة، ولا سيما إذا تزوجت بعد أبيه، فأراد الله – تعالى – وهو أرحم الراحمين بما أكد من الوصية بالأيتام أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم يربونهم تربية دينية دنيوية؛ لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم، فينتشر الفساد في الأمة فتنحل انحلالا، فالعناية بتربية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد.

والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة، فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة.

أما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون الملحفون الذين يقدرون على كسب ما يفي بحاجاتهم، أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا، إلا أنهم اتخذوا السؤال حرفة، يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملا ينفع الناس، ولكن المسكين من يعجز عن كسب يكفيه[1].

وحق المسكين هو الصدقة. قال الله تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر: ٢٠)، وقوله: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد: ١٦-15-14)،

وقد بينت آيات وأحاديث كثيرة حقوق المساكين وأعظمها آية الزكاة ومراتب الصدقات الواجبة وغيرها: قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ

[1] تفسير المنار لمحمد علي رضا، مرجع سابق، (١/٣٠٤-٣٠٥).

وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠).وابن السبيل هو المسافر يمر بحي من الأحياء، فله على الحي الذي يمر به حق ضيافته. وحقوق الأضياف جاءت في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة)[١].

وأما إيتاء ابن السبيل فلإكمال نظام المجتمع؛ لأن المار به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلاً ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقاية من إضرار الجوع أو الحر[٢].

وقد حذر القرآن من التساهل في حقوق الأرحام من الأقارب وذكر أنها مما يسأل عنه العبد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١)، أي واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، فالمقصد الأهم منها: تقوى المؤمنين بالحذر من التساهل في حقوق الأرحام واليتامى من النساء والرجال[٣].

ولهذا وصف الله تعالى المتقين بصفات الثناء والتنويه، والتي إذا اجتمعت في محل يكون قد استكمل ما به التقوى، وتلك هي مقاومة الشح المطاع، والهوى المتبع. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣-١٣٤)

الصفة الأولى: الإنفاق في السراء والضراء. والإنفاق هو الصدقة وإعطاء المال

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جامع ما جاء في الطعام والشراب، الحديث رقم (٢٢) والبخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف، وخدمته إياه بنفسه، الحديث رقم (٦١٣٥).

(٢) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٧٨/١٥).

(٣) نفسه (٢١٥/٤).

والسلاح والعدة في سبيل الله. والسراء فعلاء، اسم لمصدر سره سراً وسروراً. والضراء كذلك من ضره، أي في حالي الاتصاف بالفرح والحزن، وكأن الجمع بينهما هنا؛ لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة. فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خلقا لا يحجبهم عنه حاجب ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.

الصفة الثانية: الكاظمين الغيظ. وكظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها، قال المبرد: فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء، ولا شك أن أقوى القوى تأثيرا على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة.

الصفة الثالثة: العفو عن الناس فيما أساؤوا به إليهم. وهي تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل ذلك على أن كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمر معهم. وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس سهل ما دونها لديها.

وبجماعها يجتمع كمال الإحسان ولذلك ذيل الله تعالى ذكرها بقوله: والله يحب المحسنين لأنه دال على تقدير أنهم بهذه الصفات محسنون والله يحب المحسنين[1].

كما مدح الله تعالى المؤمنين الصادقين، وهو ما يفهم منه ذم الكاذبين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩)،

[1] التحرير والتنوير، مرجع السابق (٤/٩١).

فهذه الآية جاءت تذييلاً لقصة ذكرت في الآيات التي قبلها، وهي قصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذباً فغضب الله عليهم، وقوم تخلفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلما كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة[1].

كما حث القرآن على الاستئذان قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور:٢٧).

وأوجب أيضاً غض البصر للرجال والنساء عن كل ما يكره من جهة الشرع النظر إليه. حتى لا تنتهك الحرمات، وأمر حفظ الفروج إلا على الأزواج، وكذلك أوجب ستر العورات، وعدم إبداء المرأة الزينة لمن لا يحل له رؤيتها، قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور 31-30).

قال ابن عطية: ويظهر لي في محكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي

[1] نفسه، (٥٤/١١).

وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء في كل ما غلبها فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفو عنه فغالب الأمر أن الوجه بما فيه والكفين يكثر فيهما الظهور[1].

في حديثه عن الإنفاق وبذل المال في سبيل الله، عطف القرآن الكريم على ذلك التحذير من التبذير، قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء :٢٦- ٢٧).

والتبذير: تفريق المال في غير وجهه، وهو مرادف الإسراف، فإنفاقه في الفساد تبذير، ولو كان المقدار قليلا، وإنفاقه في المباح إذا بلغ حد السرف تبذير، وإنفاقه في وجوه البر والصلاح ليس بتبذير.

ووجه النهي عن التبذير هو أن المال جعل عوضا لاقتناء ما يحتاج إليه المرء في حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات. وكان نظام القصد في إنفاقه ضامن كفايته في غالب الأحوال بحيث إذا أنفق في وجهه على ذلك الترتيب بين الضروري والحاجي والتحسيني أمن صاحبه من الخصاصة فيما هو إليه أشد احتياجا، فتجاوز هذا الحد فيه يسمى تبذيراً بالنسبة إلى أصحاب الأموال ذات الكفاف،

وأما أهل الوفرة والثروة فلأن ذلك الوفر آت من أبواب اتسعت لأحد فضاقت على آخر لا محالة لأن الأموال محدودة، فذلك الوفر يجب أن يكون محفوظا لإقامة أود المعوزين وأهل الحاجة الذين يزداد عددهم بمقدار وفرة الأموال التي بأيدي أهل الوفر والجدة، فهو مرصود لإقامة مصالح العائلة والقبيلة وبالتالي مصالح الأمة.

---

[1] المحرر الوجيز لابن عطية، مرجع سابق، (١٧٨/٤).

ومعنى ذلك: أن التبذير يدعو إليه الشيطان لأنه إما إنفاق في الفساد وإما إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات فيعطل الإنفاق في الخير وكل ذلك يرضي الشيطان، فلا جرم أن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه.

وهذا تحذير من التبذير، فإن التبذير إذا فعله المرء اعتاده فأدمن عليه فصار له خلقا لا يفارقه شأن الأخلاق الذميمة أن يسهل تعلقها بالنفوس كما ورد في الحديث «إن المرء لا يزال يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»، فإذا بذر المرء لم يلبث أن يصير من المبذرين، أي المعروفين بهذا الوصف، والمبذرون إخوان الشياطين، فليحذر المرء من عمل هو من شأن إخوان الشياطين، وليحذر أن ينقلب من إخوان الشياطين[1].

وإذا كانت أواصر القرابة معتبرة في الخطاب القرآني وتترتب عليها واجبات وحقوق، فإن هناك رابطة أخرى أسمى هي رابطة الإيمان بالله تعالى، وهي تقتضي حسن المعاملة بين أفراد الجماعة المؤمنة، والاحترام المتبادل، وعدم السباب والشتائم، والسخرية وتنابز بالألقاب، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة المفسدة للأسرة والمجتمع، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات ١١) .

فالآية هنا تقول إنه لما اقتضت الأخوة أن تحسن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم، فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها في جاهلية الأمس وأيضا جاهلية اليوم لهذه

[1] التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٥/٧٧-٨١).

المناسبة، وهذا نداء للمسلمين يأمرهم بواجب بعض المجاملة بين أفرادهم.

وقد ذكرت الآية النهي عن السخرية، لأن السخرية تثير انفعال الحياء في نفس الساخر بينه وبين نفسه. ولأن الحالة الغالبة هي أن يكون المسخور منه خير من الساخر.

أما اللمز فهو: ذكر ما يعده الذاكر عيباً لأحد مواجهة فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب.

والمراد بالألقاب في الآية الألقاب المكروهة بقرينة ولا تنابزوا.واللقب ما أشعر بخسة أو شرف سواء كان ملقبا به صاحبه أم اخترعه له النابز له.

وقد خصص النهي في الآية بالألقاب التي لم يتقادم عهدها حتى صارت كالأسماء لأصحابها وتنوسي منها قصد الذم والسب خص بما وقع في كثير من الأحاديث كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أصدق ذو اليدين)[1].

وقد ختمت الآية بأنه لا ينبغي الاتصاف بهذه الصفات الخلقية الذميمة بعد الاتصاف بالإيمان، وذلك في قوله تعالى: (بعد الإيمان) أي أن الإيمان لا يناسبه الفسوق؛ لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع[2].

أيضاً من الأخلاق التي تستغني عنها المجتمعات والدول خلق العدل: حيث تقتضي مسؤولية الخلافة أن تتسم العلاقات بين البشر بالعدل والحق ورفض الظلم والطغيان وبهذه المناسبة وبخ القرآن الكريم الجماعة التي تستسيغ الظلم والطغيان بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا

---

[1] التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٢٤٨/٢٦).

[2] نفسه (٢٥٠/٢٦)

فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾النساء: ٩٧، وهذا القيد الأكبر لحركة الإنسانية صوب أهداف الاستخلاف والتسخير هو الذي أشار إليه القرآن في ذيل آية التسخير الكبرى آنفة الذكر يقول تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾) إبراهيم: ٣٤، وكذلك في ذيل آية المسؤولية بقوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب: ٧٢.

فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المتنوعة، إنما وزع الله المواهب، لتتداخل هذه المواهب، ويتكامل المجتمع البشري، فواحد يزرع الأرض، وثانٍ يغزل القطن، وثالث ينسج القماش، ورابع يصنع الأدوات. وهذا عدل عظيم؛ لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة، لذلك جعل الحق هذا التنوع في المواهب ليربط الناس بالناس قهراً عن الناس، فلم يجعل لأحد تفضيلاً على أحد، فما دام واحد يعرف في مجال، وآخر لا يعرف في هذا المجال، فالذي لا يعرف محتاج للآخر، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغما عنهم [1].

وقد قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ آل عمران: ١٨.

كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد: ٢٥، والمراد به العدل.

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ لتقام به السياسة وتدفع به الأعداء[2]. وقال أيضاً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ

---

[1] تفسير الشعراوي: الخواطر، لمحمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٣٨/٣.

[2] تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ١٩٠/٥.

الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ النساء: ١٣٥. فالعدل من أسماء الله الحسنى، ويتطلب الوقوف بحزم لتحقيق العدل وهذا يعني أن يكون الفرد شاهداً لله سبحانه وتعالى، حتى لو كان ضاراً بمصالحه الخاصة أو مصالح أولئك المقربين منه أو الأعزاء عليه(١).

يطالب القرآن البشر بالوفاء بالأمانات قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾النساء: ٥٨ بإعطاء كل شخص حقه والفصل بين الناس بنزاهة وعدل، ترتبط العدالة بمفهوم الأمانة؛ فيجب على الإنسان أن يكون مخلصاً وصادقاً، ووفقاً للرازي وغيره من المفسرين، تشمل كلمة الأمانات في صيغة الجمع، كل أنواع الأمانة التي يجب أن يتم الوفاء بها وأهمها "العدالة" وأنه لا ينبغي لأولئك الذين يتمتعون بالسلطة الفصل بين الناس وفقا لأهوائهم بل يجب عليهم الالتزام الصارم بالقيم الأخلاقية.

ثانياً: أدوات البناء الأخلاقي:

لكن كيف العمل لصياغة منهج شامل للبناء الأخلاقي، لابد أن هناك مجموعة من الأدوات التي لا سبيل إلى التأسيس والبناء وكذلك العلاج إلا باستنفارها جميعا، هذه الأدوات من قبيل الأبوين والمدرسة والإعلام قد تكون فاسدة، ومن الصعب أن تصلح فاسداً بفاسد مثله أو أشد منه فساداً، لكن الأمر يتطلب –في نظري– إصلاحاً متدرجاً منفتحاً يحدث انقلاباً حقيقياً تصبح به قنوات الفساد والعوز التي تغتال الفطرة، وتطمس القيم الفاضلة أدوات إصلاح ومناعة إيمانية ضد الفساد، وهذه التحولات صعبة لكنها ممكنة، ويصبح

(١) نفسه، ١٠٢/٢.

الممكن ميسوراً كلما نجحنا في أن نجد آباء وأمهات في مقدمة القيادة أكفاء مهرة يعرفون كيف وإلى أين يسيرون، ويمتلكون دائما الجرأة على السير قدماً وصعداً، لا يبددون جهدهم وحماسهم في يوم أو شهر أو سنة ثم يذبلون؛ لأن من أخطر الآفات التربوية شرة الوارد المندفع،.

كذلك لا تثبطهم معوقات الطريق ولا يوهن عزائمهم طوله، فيجب أن يتدرب الأبوين على تحمل المسؤولية، بحيث لا يروغ أحدهم عن مهمته، ولا يمل قبل إتمامها، آباء يشكلون ببسمتهم وسلوكم العادي منارة يعشوا إليها الصغار التائهون، هم أولاء الذين يشكلون قلب الإصلاح في الأسرة، والقاعدة العامة: أن الجسم يتحرك في اتساق كبير مع القلب. نعم، قد يستشري الخلل في عضو منه إلى حد أن يحدث علة تؤثر على القلب ذاته، فيعطل حركته أو يبطئها. وتلك حال الأسرة عندما يستبد بها الداء ويستولي عليها التيه، فلا تكاد تفرز طبيباً معالجاً، أو دليلاً مرشداً، غير أنه سيوجد دائماً أفراد يمكن أن يكونوا بسلوكهم حبة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، ثم ما تلبث السنابل أن تكون حقولاً. تلك سنة الحياة: ناموس انتشار العدوى هو هو، في الخير كما في الشر.

وبالجملة فإنه لا بد من جعل الجهات المعنية بالإصلاح غرضا وأداة. وهذه الأدوات هي:

أ.**الأبوين**:تشكل الأسرة النواة الأولى للمجتمع يتربى فيها الشخص قبل أن ينفتح على محيطه الاجتماعي الأكبر، وهي أوّل مدرسة لتعليم القيم الأخلاقيّة، يدخلها الإنسان، فكثيرٌ من أُسس الأخلاق، تنمو في واقع الإنسان هناك، فالمحيط السّليم والملّوث للأسرة، له الأثر العميق في صياغة السّلوك الأخلاقي لأفرادها، وعلى ذلك لا بد من زرع قيم الحنان والعطف، وأسس التربية الصالحة في نفس الطفل في هذه المرحلة،

وعلى الأبوين أن يطلعا بالمسؤوليات الآتية:

– تربية الطفل إيمانياً: وذلك بربطه بأصول الإيمان والاعتقاد، وتعويده على أركان الإسلام، وتعليمه مبادئ الشريعة التي تتناول الحلال والحرام وغير ذلك من الواجبات[١].

– تربيته اجتماعياً: فالإسلام يؤكد على صلة الأرحام، ومساعدة الآخرين، واحترام الوالدين، ومراعاة المحتاجين من الأقارب خاصة، ثم الأقرب فالأقرب؛ كالجيران والأصدقاء[٢].

– تربيته جسمياً وصحياً: وهي مسؤولية هامة وضرورية جدًّا، فالصغير إن أُهمل منذ صغره، فإن ذلك سيؤثر في فكره وتفكيره، وفي بعض الأحيان سيؤدي إلى تدميره، فلتحرص الأسرة على التحرز من الأمراض المعدية، ولتبعد الصغار عن ذلك، مع وجوب التداوي إن حدث مرض، وتعويد الصغار على حب الرياضة، وتحذيرهم مما فيه ضرر بالنسبة لأبدانهم أو عقولهم، ويتمثل ذلك في البعد عن أصدقاء السوء، أماكن الفساد والشر، وغلق منافذ الفتنة والفاحشة[٣].

– تربيته اقتصادياً: فالأسرة ترعى الطفل اقتصاديًّا، وأفضل إنفاق الرجل ما كان على أهل بيته، فيرى ما يحتاج إليه أبناؤه من الأمور الحياتية والعلاجية، كما يدعو كل من الأب والأم أبناءَهما إلى تعود الاقتصاد والادخار وأهمية التدبير، مع تحذيرهم من السرقة، ومن التبذير والإسراف، وإهدار الأموال العامة أو الخاصة، مع تعويدهم على ترشيد الاستهلاك[٤].

---

[١] منهاج تربية الطفل المسلم من توجيهات القرآن الكريم، لمحمد إبراهيم سليم، مكتبة، ص ١

[٢] الأسرة المسلمة في القرآن دراسة موضوعية، لشيرين زهير أبو عبدو معالم، رسالة ماجستير، في الجامعة الإسلامية غزة، ١٤٣١-٢٠١٠م، ص ٩١.

[٣] نفسه، ص ٩٠

[٤] منهاج تربية الطفل المسلم، مرجع سابق، ص ٤٥.

– تربيته نفسياً: وهي لها أهمية خاصة؛ لأن نفسية الطفل الصغير إن اضطربت وهو صغير فستؤثر فيه سلبًا مع كبره، فينبغي مراعاة نفسية الصغير، وإذا حدث شجار بين الوالدين فلا يكون أمام الصغار؛ حتى لا يفقد ثقته بالوالدين عن طريق المنهج الخفي، ولا تحدث له صدمات نفسية أو عقد نفسية تجاه أمور معينة، وكذلك مراعاة شعور الصغار وتعويدهم على الجرأة مع الأدب، وعدم الشعور بالنقص أو التكبر أو الحسد أو سرعة الغضب أو النقد، وهكذا.

– تربيته خلقياً: حيث إن الأسرة مكان آمن لتعلم الأخلاق، حتى يكون الأفراد أسوياء؛ لأن الطفل الصغير كالصفحة البيضاء، فالأسرة تعمل على غرس التقوى والأخوة والرحمة والعفو والحياء والجرأة مع مراعاة حق الله تعالى وحق رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك مراعاة حق القرآن الكريم وحق الوالدين وحق الأخوة وحق الجار وحق الإخوة وحق الرفيق وحق الكبير، وحُسن التعامل مع الآخرين، مع التأكيد على آداب الإسلام؛ كآداب السلام واللباس، وآداب اليوم والليلة، وأذكار الصباح والمساء، مع آداب الاستئذان، وآداب المجلس، وآداب الحديث، وآداب عيادة المريض، وآداب الطعام والعُطاس والتثاؤب؛

فلهذا وغيره كانت نظرة الأسرة في الإسلام ومسؤولياتها في الإسلام ذات شمولية وتكامل؛ لأنها تتناول جميع الجوانب الإنسانية، بخلاف غيرها من الفلسفات، فإن كل فلسفة تدعو إلى مفاهيم معينة؛ ماركسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو فسيولوجية... أما في الشريعة الإسلامية المحمدية الغرَّاء فإن مسؤولية الأسرة تشمل كل الجوانب[1].

وللأم مركزيتها في التربية الخلقية، فعليها أن تعد نسمتها إعداداً علمياً

[1] معالم الأسرة المسلمة في القرآن، لشيرين زهير أبو عبدو، ص ٨٩.

وأخلاقياً، ولا تسيء تنشئة نسلها، أو تهمله، أو تسلمَهُ إلى غيرها مِن وَسَط منحل، وإعلام مفسد، وشارع سائب، ورفقة مُضلة. مما يجعل عملها منقطعا بعد الموت، لأنها لم تخلف ذرية صالحة، ولم تساهم في بناء أمتها، وهي إن أحسنت تربية نسمتها، يكون ذلك من الأعمال الخالدة بعدها.

وأهم شيء بالنسبة للأم أن يكون بيتها منارة للتربية، ومصنعا لإعداد القادة والخيرين من هذه الأمة، وهذا هو الهدف المنشود من التربية.

ب. المسجد:للمسجد دور أساسي في تربية أجيال الأمة، علماً وإيماناً وإحساناً؛ ولهذا نحتاج إلى إحياء دوره وإسهامه في تنشئة الإنسان المسلم، لكونه محضن الرجال، ومدرسة العلماء، ومحراب المتبتلين، ودائرة قيادة الجهاد، ومجلس الشورى والإيمان... إضافة لإسهامه التربوي،

يحتل المسجد مكانة عالية في حياة المسلم اجتماعياً وسياسياً، فهو: مركز حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية. مركز حياتهم الروحية قبل كل شيء. مكان استراتيجي فيه تعقد العقود مع الله تعالى توبةً وعَزْما صالحا، ومنه تنطلق الحركة الجهادية، وفيه يذكر الله ويُتلقى العلم بالله وبشريعة الله. فيه الصلوات الخمس جماعة يكاد حضورها يكون فرضاً على الرجال، لا يتخلف منهم عن الجماعات إلا شبه المنافقين. فيه الجمعة وخطبتها. فيه اللقاء الطارئ والمشورة. وإليه يعود الفضل في تربية روح الخشوع والتقوى والأخوة والتعاون والولاية بين المؤمنين والانتماء إليهم[1].

على المسجد أيضاً أن يستأنف نشاطه التوعوي والدعوي، وعلى المسجد توجيه وتغذية حياة الناس الروحية. حيث يجتمع المؤمنون المشتتون المنشغلون طول اليوم بهم المعاش لاجئين إلى محضن يسود فيه الأمن والخشوع.

---

[1] انظر وظيفة المسجد في المجتمع، لصالح بن ناصر بن صالح الخزيم، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية ط١، ١٤١٩هـ، ص ٢٢

ت. **المدرسة والجامعة**:تعتبر المدرسة والجامعة امتداداً لحاضنة التربية بالنسبة للإنسان؛ ولذا يجب رعايتها حق رعايتها، بزرع الإيمان الحقيقي بالله، وغرس الفضائل في نفوس مرتاديها، ولا يكون ذلك دون أن يكون القرآن الكريم من سلم الأولويات فيها حفظاً وفهماً وأخلاقاً، والشخصية التي يهدف لها المصلحون من هذه الأمة ويقدروا أن تكون صنيعة هذه التربية في المدرسة والجامعة، هي شخصية قرآنية، لكن لا بد من الإعداد لها والاستعداد بوضع هندسة مدرسية واعية بهذا الهدف، فتكون مواصفاتها قرآنية هذه الشخصية تنجمع فيها العلوم حول نواة العلم، أي يُوجِّه فيها القرآنُ الإنسان.

تربية النشء أساسية وكذلك التدريب والتكوين المهني، واكتشاف المهارات والخبرات جيد لتنوع مشارب الناس واختلاف أحوالهم ومقدراتهم الذهنية والجسمية؛ فالناس متفاوتون في القدرات والمهارات، فبعضهم زوده الله تعالى ببسطة في العلم وبعضهم ببسطة في الجسم، فمن له الاستعداد والميول للأعمال المهنية يزود بالمعارف والخبرات اللازمة لذلك ليكون إيجابياً في مجتمعه ويجر النفع لنفسه وأهليه، ومن له قدرة على الإفصاح والتوصيل والتواصل يزود بخبرات معرفية تأهله لذلك ليكون أستاذا وقائدا للخير وهكذا.

أما آفات المدارس ذات التوجه الانهدامي فهي كثيرة، ولا بد من التنبه لها، حتى لا تصطاد صغارنا وتجتال فطرتهم، وتصادر أفكارهم وإحساساتهم، فالمدارس لا بد أن تديرها عقول إيمانية نورانية، تمحي ما خلفته العقول المعاشية اللاييكية التي تركت شتاتٌ من مواد لا رابط بينها. وخلفت بناتاً متبرِّجَة مشتتة لا مغزى لها، نريد مدارس تركز مفهوم الصلة بين الخالق والمخلوق، تركز عقلاً يوطد في النفوس ما كانت التربية المبكرة غرسته عن طريق الحب الفطري والإخبار

الفطري (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)[1].

ث. **الإعلام**:تعتبر وسائل الإعلام المحرك الأساس للرأي العام، وصانع أفكاره وتوجهاته، فهو نتاج الثورة المعلوماتية التي عولمت العالم، حتى أصبح شاشة صغيرة في بيتك أو جيبك، وقد استخدمته الأنفس الشريرة أبشع استخدام، واستثمرت فيه لتشويه الخلْق والخُلُق، فاجتال بشياطينه فطرة الإنسان ومسخ خلقه، ولكن في المقابل له إسهام تربوي إن وظف واستثمر في جانب التربية الإيمانية الخلقية؛ وذلك لما له من تأثير على البيت والمدرسة وكل حواضن التربية، فهو يغزو هذه المواطن وينفذ إليها برفق[2].

خطر الإعلام يتمثل في تفكيك الأسر، ومصادرته عقول وقلوب الأطفال، وقتل الوقت فأفقد بذلك واجب الاتصال الحميم بين الآباء والأبناء.

سبق التلفزيون إلى النفوس الطرية فَنَفثَ فيها من سمومه قبل أن تُتاح الفرصة للكلم الطيب ليصلح بما بها[3].

يربي الآباءُ والأمهاتُ الأبناءَ على سلوك إسلاميٍّ، وقد يكونُ في المدرسة والكليةِ أساتذة يعطون المثال الطيبَ، ويبنون الفضيلةَ. لكنَّ كلَّ ذلك يذهبُ أدراجَ الرياح أمامَ عواصف الدعاية الإعلامية، والقَنْبَلَةِ الدائمةِ للفكر والشعور. فوجب اخترع تلك الوسائل الجهنمية وتسخَّيرها لنشر ثقافة القيم، وترويج بضاعتها، ويعول في ذلك على الذي يقنع ألا وهو الصوت والصورة، في رسالة الإعلامية مبرمجة، مدروسة، لتتسلل إلى أعماق النفس، فتحدثَ فيها الانفعال

---

(١) صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ، باب ذكر مقاساة المصطفى صلى الله عليه وسلم ما كان يقاسي من قومه في إظهار الإسلام، الحديث رقم: ٦٥٦٢.

(٢) انظر دور وسائل الإعلام في العصر الرقمي في تشكيل قيم الأسرة العربية دراسة تحليلية، لمحمد خليل الرفاعي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧، العدد الأول والثاني ٢٠١١م، ص ٧٢١، ودور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني (دراسة ميدانية)، لموسى عبد الرحيم حلس، وناصر علي مهدي، ص ١٤٨-١٤٩

(٣) دور وسائل الإعلام في العصر الرقمي، مرجع سابق، ص ٧٢١.

المطلوبَ[1].

كما تُستعمل أكثرُ الوسائل جدوَى لتبليغ رسالة الخير، وتحبيب الحق، والتنفير من الباطل. وإن الخَطابة، والتمثيلَ، والصورة، والنشيد، واللونَ، إذا عالجها الفن الإعلاميُّ من زاوية إسلامية، وبمعايير إسلامية، وسخرهما المؤمنون لغايتنا وأهدافنا، لَمِنْ أهم وسائل التعليم والتربية وتسديد الرأي العام[2].

ما دام أمر الإعلام على هذه الشاكلة فلا بد من أسلمته، وتطهيره من أرجاس الجاهلية، والانحلال الخلقي، وليس لنا من مندوحة عن الدخول في المباراة العالمية لجلْب انتباه السامع والناظر بوسائل الإعلام الحديثة وفنونه وتقنياته، من مسرح ونشيد ونحو ذلك.

وقطعَ الصلة بين أشكال الإعلام التي يتيحها التقدم العلمي التكنولوجي وبين مضمونها الجاهليّ الدوابي[3].

---

[1] انظر دور وسائل الإعلام في العصر الرقمي، مرجع سابق، ص ٧٢٢.

[2] انظر الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيم، تحرير وتقديم، لعبد الإله بلقزيز، مركز الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص ٢٣١.

[3] انظر الإعلام الديني الرسمي في موريتانيا الواقع والآفاق، للشيخ التجاني أحمدي، ندوة الإعلام الديني، المنعقدة في جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر، ٢٢و٢٣ إبريل ٢٠١٥م.

الخاتمة:

وفي غب هذا البحث أعتَقِد أنّ ما قدّمته هو رؤية تصلح للبناء الأخلاقي للإنسان على ضوء الهدي القرآني، وما يمكن أن يكون من نتائجه على مستوى المنهج والتنزيل، وقد مررت على مفهوم البناء الخلقي ثم تشخيصي لواقع الإنسان المسلم والآفات التي تحيط به، والتي تعيق تقدمه ونشاطه، وتصده عن الله عز وجل وتفسد فطرته السليمة التي فطره الله عليها، والتي هي التمسك بالمنهج القرآني في التربية والسلوك، ثم أتبعت ذلك بمحاولة تبيّن معالم النظام المنشود للبناء الأخلاقي، وملاحظة مزاياه وسماته، ودقة أهدافه ووضوح رؤيته، والتأكيد على واقعيته، وصلاحيته لكل زمان ومكان؛

ويمكن إجمال النتائج في النقط الآتية:

١. مركزية الإنسان في هذه الحياة، وذلك لارتباط الإنسان برسالة الإسلام ودوره الاستخلافي.

٢. أن الإنسان المسلم اليوم قد فقد بوصلته، بابتعاده عن المنهج القرآني، وسيطرة فكر وعادات غريبة عليه.

٣. إذا كان الهدي القرآني صنع شخصيات مسلمة فريدة، لكن كان للتحولات على مستوى الفكر والعادة أثر بالغ في تشويه ذلك الهدي وتمويهه، من هنا كان انطلاق الباحث في نقد الحال، رغبة منه في وضع الدواء للداء.

٤. الحل يكمن في تربية إيمانية إحسانية تعالج القلب وتداويه، منهجها الهدي القرآني، غايتها تحقيق الهدف من حكمة الاستخلاف في الأرض.

٥. بناء أخلاقي شامل ومكتمل يغطي الجانب الفردي والجماعي، السياسي، والاجتماعي والاقتصادي.

٦. بناء أخلاقي يؤهل الأمة لحمل عبء الاستخلاف الإلهي، وأداء مسؤولياتها تجاه الإنسان حيثما كان، وتجاه الكون المسخر بعوالمه الحية والجامدة، المتحركة والساكنة.

٧. بناء أخلاقي متدرج يرتب الأولويات ويتخير أساليب تربوية ناجعة ومتدرجة، تراعي في منهجها التربوي اختلاف الظروف والأحوال التي تعتري الفرد. كما تتنوع أدواتها وقواها المستنفرة بتنوع مستويات التربية ومتطلباتها.

٨. بناء أخلاقي يعول على الإيمان والإحسان كأساس لتحديد بوصلة الفرد والمجتمع، يجعل من الجهات المعنية بالإصلاح والتغيير غرضا وأداة، غرضاً؛ لأنها الأحوج إلى الإصلاح لخطورة فسادها على المجتمع، وأداة لأنها الأقدر على الإصلاح.

٩. بناء عملياً وعلمياً، عملياً يركز على القلب باعتباره مركز الإنسان، وعلمياً يشجع على اكتساب العلوم، وتسخير كل الطاقات من أجل الاستعداد لبناء قوة تؤهل الأمة لإيصال رسالتها للعالم.

التوصيات:

أما التوصيات التي يراها الباحث بعد مراجعته الهدي القرآني، فهي توجيه الطلبة والأساتذة الباحثين إلى مزيد من البحث والتحليل للمنهج القرآني في البناء الأخلاقي للإنسان، وذلك بجمع قضاياه ودراستها دراسة متأنية وعلمية، تقربه من الناس وتفتح أبواب العمل به،

كما أتوجه إلى الدعاة والعاملين في حقل الإرشاد الديني والإدارات النصوحة بضرورة الاهتمام بهذا المنهج، والاجتهاد في تطبيقه وتنزيله على الواقع، فهو يجمع ولا يفرق، ويبني ولا يهدم، هو نهضة هادئة هادفة منطقها عقلي، ووسيلتها تربوية سلمية.

المصادر والمراجع:

١. الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢. الأسرة المسلمة في القرآن دراسة موضوعية، لشيرين زهير أبو عبدو معالم، رسالة ماجستير، في الجامعة الإسلامية غزة، ١٤٣١-٢٠١٠م.

٣. الأصل الأخلاقي للتربية الإسلامية وانعكاساته التربوية: دراسة تأصيلية، عدنان مصطفى خطاطبة، مجلة العلوم التربوية، العدد الثالث، شوال ١٤٣٦هـ.

٤. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لابن عاشور، محمد الطاهر، دار السلام مصر، ط٢، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٥. الإعلام الديني الرسمي في موريتانيا الواقع والآفاق، للشيخ التجاني أحمدي، ندوة الإعلام الديني، المنعقدة في جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر، ٢٢و٢٣ إبريل ٢٠١٥م.

٦. الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيم، تحرير وتقديم، لعبد الإله بلقزيز، مركز الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

٧. التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٨. تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٩. تفسير الشعراوي: الخواطر، لمحمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم.

١٠. تفسير المنار، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

١١. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه،

تحقيق: ابن الخطيب، ط١، مكتبة الثقافة الدينية.
١٢. الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
١٣. جوانب التربية الإسلامية الأساسية، لياالجن مقداد، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٤. دور وسائل الإعلام في العصر الرقمي في تشكيل قيم الأسرة العربية دراسة تحليلية، لمحمد خليل الرفاعي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧، العدد الأول والثاني ٢٠١١م.
١٥. دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني (دراسة ميدانية)، لموسى عبد الرحيم حلس، وناصر علي مهدي.
١٦. فلسفة التربية الإسلامية، الشيباني عمر التومي، الدار العربية للكتاب.
١٧. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت.
١٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لمحمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، - ١٤٢٢هـ.
١٩. المدخل إلى القيم الإسلامية، لجابر قميحة، دار الكتب الإسلامية، بيروت، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٢٠. معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه، للأنصاري عبد الرحمن محمد، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٧هـ، ١٤١٨هـ.
٢١. معالم الأسرة المسلمة في القرآن، لشيرين زهير أبو عبدو.

٢٢. المفردات في غريب القرآن، الأصفهانى، الراغب، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.

٢٣. المنهاج القرآني في التشريع، فتح الله سعيد، عبد الستار، رسالة دكتوراه قدمت في جامعة الأزهر كلية أصول الدين تخصص التفسير والحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٢٤. منهاج تربية الطفل المسلم من توجيهات القرآن الكريم، لمحمد إبراهيم سليم، مكتبة.

٢٥. منهج القرآن في عرض الأخلاق الأسرية، لعلي عبد الله سعيد الشهري، رسالة الماجستير، في جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ.

٢٦. نحو برنامج وطني للقيم، خليل النحوي، ورقة مقدمة لندوة بناء الإنسان الموريتاني في القرن الواحد والعشرين، المنعقدة بانواكشوط ٢-٣ اغشت ٢٠١٥م.

٢٧. وظيفة المسجد في المجتمع، لصالح بن ناصر بن صالح الخزيم، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية ط١، ١٤١٩هـ.